هذا ومعظم الكتب الجدليّة مدارهُ على الحقائق الاعتقادية المختلف عليها بين الشرقيين ومن مطالعة اصناف هذه المؤلفات يظهر لك ما قدَّمه المرسلون الافرنج من الخدم للدين في الشرق وغيرتهم على تثبيت اولاد الايمان في ايمانهم وردّ سهام الاراطقة

نمره ٢٧ و٢٨ تحت هذين الرقمين كتابان احدهما قديم بخط عربي قد شوهتهُ غِيَر الايام والاخر كشوني وهما بمعنى واحد وموضوعهما جدال بين الراهب السمعاني (١ وثلاثة كفار من المسلمين وعدولهم بحضرة الامير المكنّى بالشتر وما جرى بينهم من الخطاب ورد الجواب. وصدرُ الكلام في هذا الكتاب هو ما نثبته هنا بالحرف:

« في امارة الملك الظاهر غازي ابن يوسف بن ايوب السلاحي على امة الاسلام بمدينة حلب الشامية وصاحب مدينة اطاكية في ثغلك لادون ابن استفانوس على قبيلة الافرنج في سنة اثنا عشر الموافقة لسنة ستة آلاف وسبعمائة وخمسة وعشرين لابينا آدم عليهِ السلام (١٢١٧م) قال: ان رئيس دير القديس سمعان النجائي البحري حضر بين يدي الامير والسلطان صاحب مدينة حلب واعمالها حيث كان يترل بجملة جيشهِ في الفضا الذي بين عمر وحارم وكان حضور الرئيس لدى الامير لاجل اصلاح دبره وترميم احواله »

ولهذا المؤلف نسخة في مكتبة دير الشرفة العامر وخمس نسخ في المكتبة الشرقيّة للآباء اليسوعيين في بيروت ولا تخلو مطالعته من افادة (له تابع)

الوحي الالهي

نظر في امكانه وضرورته

للاب شرل ابيلا اليسوعي (تابع)

جاء في المجمع المسكوني الواتيكاني (٢ ما تعريبهُ:

« وهي امنا الكنيسة المقدسة تعتقد وتعلم انَّ الله اصلُ الكائنات كلها وغايتها جميعاً يستطيع العقلُ البشري بنورهِ الطبيعي ان يعرفهُ يقيناً بتأكيد من الاشياء المبروءة لأنَّ غيرَ منظوراتهِ قد أُبصرت منذ خلق العالم اذ أُدركت بالمبروءات (رو ١: ٢٠). الَّا انَّهُ قد حسُنَت لدى

---

١) المراد بالراهب السمعاني هنا نسبته الى دير مار سمعان كما سترى لا نسبته لمانلة

٢) في الجلسة الثالثة الرأس الثاني في الوحي

حكمته وجودته طريقةٌ غير هذه وهي فائقة الطبيعة بما أوحى ذاتهُ واحكام ارادته الازلية الى الجنس البشري على ما قال الرسول : انَّ الله الذي كلَّم الآباء قديمًا في الانبياء كلامًا متفرّق الاجزاء مختلف الانواع كلَّمنا اخيرًا في هذه الايَّام في الابن (عب ١ : ١-٢)

« والى الوحي الالهي هذا يُعزى ولا بدَّ الفضل في كون ما جاء من الامور الالهيَّة بيّنًا في حدّ ذاته للعقل الانساني اضحى ايضًا في حالة الجنس البشري الحاضرة مستطاعًا للجميع معرفتهُ بسهولة وتأكيد ثابت دون ان يشوبها ضلال . ولكن ليس هذا هو السبب في وجوب القول الوحي ضروريًا ضرورةً مطلقةً وانما هو كذلك لأنَّ الله لجودته غير المتناهية وجَّه الانسان الى غاية فائقة الطبيعة وهي نصيب يكون له من الخيرات الالهيَّة التي تفوق كليًا أدراك الذهن البشري لأنَّ ما لم ترهُ عينٌ ولا سمعت به اذنٌ ولا خطر على قلب بشر ما اعدَّهُ الله للذين يحبّونهُ (١ كور ٢ : ٩) »

ولم يغرب عن بالنا اننا بازاء المتعاقلين في موقف يقتضي منا ادلة عقليَّة محضة وعليه لم نُورد النصّ الواتيكاني قصدَ ان نستخلص منهُ حجَّةً عليهم وانما جلّ بغيتنا ان نوقف القارئ على معنى ضرورة الوحي التي تجزم بها الكنيسة المقدَّسة والتي توخينا اثباتها هنا بالبرهان العقلي . وتمهيدًا لهذا الغرض رأينا ان نتقدّم قولًا مجملًا موجزًا في حقيقة الضرورة وضروبها

الضرورة اسمٌ للاضطرار وهو الاحتياج الى ما يُقال لهُ ضروريٌّ . فالضروري اذًا هو ما لا غنىً عنهُ للشيء كيما يكون او يفعل

وللضرورة اضرُب ثلاثة فهي اصليَّة (métaphysique) وطبيعيَّة (physique) وادبيَّة (morale) . وليس في الاولى لنا شأن هنا فنضرب عنها صفحًا

اما الثانية ويُقال لها ايضًا مطلقةٌ فهي كون الامر الضروري لا تتمّ بدونهِ الموازنة التي لا بدَّ منها بين الفاعل وفعلهِ وذلك اما لخلل في قواه واما لشرطٍ لم يُستوفَ . فالعصفور مثلًا لا يطير بلا جناح والعين لا ترى بلا نور

واما الضرورة الادبيَّة فانما تُعتبَر في الوسائط التي يتذرَّع بها البشر طلبًا الى غاياتهم . فالواسطة اللازمة لزومًا ادبيًا هي التي لا يستحيل دونها بلوغ الانسان غايتهُ الَّا انهُ ان اعتُبرت قواهُ مجرَّدةً في حدّ ذاتها الَّا انَّ ظروف الحال التي وُجد فيها الانسان تجعلُ هذه الواسطة ضروريَّةً بحيث انهُ بدونها يُعاني في تحصيل الغاية مشقَّةً عظيمة وتعسُّرًا شديدًا وصعوبةً هذا حدّها حتى ان الناس في واقع الامر لا

يتجشمون تلك المشقات ولا يقاومون تلك الصعوبات المقاومة الكافية بل تنحط دون تذليلها قواهم . والصعوبات هذه درجات تتراوح معها الضرورة الادبية فتبلغ هذه اشدها ويقال الواسطة لازمة بحصر المعنى اذا انحطت دون تذليل الصعوبة قوى البشر كلهم وعلى هذا النوع مثلاً ضرورة اليكار لرسم دائرة متقنة محكمة . ويقال للواسطة ضرورية على سبيل التوسع في المعنى اذا امكن البعض القليل من الناس ان يستغنوا عنها من ذلك قول الاخلاقيين مثلاً : من الوسائل اللازمة لصيانة النفس من الخطية تجنب اسبابها القريبة . يحتجون بهذا مع علمهم ان الانسان حر لا يضطره شيء الى الاثم وهم عالمون ايضاً انه وان عرض بنفسه الى اسبابه القريبة قد لا يجترحه فعلاً غير ان سلامته من خطره عندئذ ليست الا من الامور الشاذة النادرة التي لا يبنى عليها قاعدة الحكيم الفطن

ومن ثم يسهل علينا ايضاح معنى الضرورة التي نريد اثباتها للوحي الالهي فنقول :

اولاً ان اعتبرنا الدين على ما هو في الواقع (راجع الصفحة ٣٣—٣٤) وضعيًا فانق الطبيعة اعني ان كان حاوياً احكاماً الهية منوطة باختيار الله الحر لا يتصفحها الضمير في كتاب الطبيعة المخلوقة وبالاحرى ان كانت غاية الانسان فائقة مقتضيات فطرته وطاقتها فحينئذ لا شك ان الوحي لا مندوحة عنه وانه لازم لزوماً طبيعياً مطلقاً . وهو المراد من قول المجمع الواتيكاني انه تعالى اختار « طريقة فائقة الطبيعة بها اوحى الينا ذاته واحكام مشيئته الازلية » . وايضاً ان ضرورة الوحي مطلقة « من حيث انه تعالى خص الانسان بغاية تفوق الطبيعة » ولا حاجة الى الاسهاب لاثبات هذه الحقيقة . فمن اين لي ان اعمل باحكام الله الوضعية ما لم يعلني اياها عز وجل وكيف يعلنها بلا وحي وهي مطوية في سر علمه غير مسطرة في سفر مخلوقاته . وايضاً قد خصنا البارئ تعالى بالنطق والاختيار ولم يفعل عبثاً فتقتضي اذاً حكمته ألا نتبع غايتنا القصوى جاهلين اياها مما يحط بنا الى منزلة الجمادات والبهائم التي لا تعي الغاية التي من اجلها وُجدت فتنقاد اليها عن عمى لمجرد ميل فطرها عليه الرب فتتبعه لا تختاره ولا تدري مآله . اما الحيوان الناطق فشأنه ان يتوخى بارادته واختياره الغاية التي من اجلها خُلق فلا غنى له ولو عن بعض الالمام بها ولكن كيف يتسنى له هذا ما لم يوحِ اليه تعالى بتلك الغاية وهي في افتراضنا سامية تفوق

مقتضيات فطرتنا وقواها فلا حديث للطبيعة عنها الينا

(ثانياً) على اننا في بحثنا الحاضر نضرب صفحاً عما يفوق ادراكنا الغريزي ونحصر القول في الدين الطبيعي القائم على العلاقات الطبيعية (راجع ص ٣١—٣٣) التي تربط البشر بخالقهم . فانّ الوحي الالهي حتى في هذا الاعتبار ضروريٌّ . الّا انّ ضرورتهُ ليست مطلقة طبيعية ولكن ادبيّة محمولة بالاقل على سبيل التوسع في المعنى تطبيقاً لما اوردناه انفاً للمجمع الواتيكاني حيث جاء انّ الالهيات التي لا تفوق ادراكنا الغريزي انما اضحت بفضل الوحي سهلة معرفتها للجميع بلا ريب وعن غير ضلال وعليه اردف المجمع بقوله انّ ضرورة الوحي من هذه الحيثيّة ليست مطلقةً

ولا مشاحّة ايضاً انّ الانسان بمجرّد العقل الغريزي يتمكن من معرفة الله على ما هو بيّنٌ واضحٌ من آيات الكتاب العزيز (١ ومن المجمع الواتيكاني نفسهِ في مستهلّ حديثهِ عن الوحي(٢ . ولكن تُرى هل معرفة الخالق هذه التي نتوفّق اليها بمعزلٍ عن الوحي كافيةٌ للحصول على غايتنا الطبيعيـة القصوى لو لم يخلقنا تعالى لما هو فوقها ؟ هذا ما لا نتعرّض لنفيهِ ولا لايجابه هنا فقد لا ينكره البعض (٣ ولكن مهما كان من الامر فلا شكّ انّ في الالهيّات والادبيّات والدينيّات غير حقيقةٍ طبيعيّة تليق بنا معرفتها بل عارٌ وشينٌ على البشر جهلُها ولو قيل بعدم وجوب الالمام بها كيما يفوزوا بغايتهم القصوى . ومن سائل ما هي وكم هي الحقائق من هذا الضرب فنجيبه : اذا تعذّر علينا ان نضع لها حدًّا يفصلها عن تلك التي لا سبيل للانسان بلا معرفتها الى غايتهِ الطبيعيّة القصوى فلا اقلّ من ان نعدّ جاهلًا غبياً مَنْ لا يعي الامور الآتي ذكرها سواء كانت من النوع الاوّل او الآخر :

الله موجودٌ وهو الهٌ متفرّدٌ في كمالهِ الذي لا حدَّ لهُ ولا قياس . يعتني بخلقهِ ويسهر عليهم بعنايته . وللانسان نفس خالدة لا تموت بموتهِ . ثمّ انّ انّ البَرَن شاسعٌ بين الخير والشرّ وبين العدل والظلم وبين الحياة الدنيا والآخرة . وعلى هذه المبادئ

---

١) اطلب سفر الحكمة ١٣ — والرسالة الى الرومانيين ١ : ١٨ — ٢٢

٢) اطلب Granderath : *Constitutiones Dogmaticae Sacrosancti Concilii Vaticani*. Friburgi, 42 sqq.

٣) اطلب Wilmers : *De Religione revelata*, n. 95

النظرية يبني العقل النتائج العملية الادبية التي تتقيد بها الارادة. منها فروض العبادة للربّ والصلاة اليه وتعظيم سلطته فيمن قلدوها ومنها تفدية الخير العامّ بالخاصّ وما على الابناء من واجب الاكرام والمحبة نحو والديهم بان يطيعوهم ويتفانوا في سبيل عضدهم ايام المرض والفاقة والشيخوخة وما على الوالدين نحوَ بنيهم بأن يقوموا باودهم وتربيتهم وتهذيب اخلاقهم . كذلك للقريب وان غريباً حقوقٌ حرامٌ ان تُهضَم فعيتُهُ لا يزّق ظلماً وماله لا يُبتَلَعُ جوراً وحياتُهُ لا يقترِبُهُ اياها الّا الله والسلطة الشرعية اذا ما ارتكب اثماً فظيماً يستوجبُ كذا عقاباً . اخيراً على المرء ان يحتفظ بذاته جسداً ونفساً وشرفاً . فحياتُهُ حتى الجسدية ليست له بل لربّه الذي حدّد لكلّ من عباده أجلاً وعليه فالانتحار اثمٌ شنيع يتعدّى به مجترحهُ حقوق ربّه مالك حياته . وبين القوى البشرية مراتب أقامتها الطبيعة وعلى العقل ان يُرشد الارادة الى مراعاتها فالناطق فيّ اسمى منزلةً من الحيوان وعلى ذلك ان يكبح جماح هذا فليس لي ان أنيل جسدي كلّ ما تشتهيه اميالهُ بل الشهمُ من اذا ثارت عليه الاهواء السافلة قاومها مجاهداً جهاد الابطال ومنتصراً للعقل على الجسد فالمنايا ولا الدنايا . والفطين من يستدرك الشرّ فيبتعد عن اسبابه والّا فيتعرّضهِ مجّاناً لخطره يتهوّر في هوّة الخزي والعار (١

وان احبّ القارئ ان يُضيف الى هذه الحقائق غيرها مما لا بدّ للانسان معرفتهُ فلا بأس . اما نحنُ فحسبُنا البيان بالبرهان انّ دون الوقوف على ما ذكرناه من المعارضات الطبيعيّة مصاعب ومشقّات قلّما يتصدّى الناس لمقاومتها . فاما أن يظلّ معظمهم متكبين في غياهب الجهل والحماقة واما أن يهديهم الله الى الحقّ بوحيه او بدون آخر

قلنا : بوحيه او بدون آخر . لأننا لم نكن لنقيّد قدرة ضابط الكل او نحصرها ضمن دائرة لا يستطيع تعالى ان يتعدّاها . فقد كان بوسعه عزّ وجلّ ان يبرأ الانسان اسمى عقلاً وانشط ارادةً فيتمكّن البشر كلّهم من معرفة الحقائق اللازمة لهم دون ان يتعدّوا طورهم الطبيعي . كذلك قديرٌ هو الربّ ان يترك قوانا العقليّة على ما هي الآن فينجدنا بنير الوحي بان يُذلّل المصاعب التي تحول دون سعينا في سبيل احراز

(١ اطلب خطب منسابره Monsabré: *Introduction au Dogme catholique*, T. 1, 6e Conférence, pp 172 - 173.

المعارف الدينيَّة اللازمة او ان يسهر علينا بعنايةٍ اعظم من التي ألفيناها في حالتنا الحاضرة الَّا انَّهُ تبارك حكمتُهُ ورحمتهُ لم يفعل لأسبابٍ ليس للعبدِ ان يناقش معبودَهُ الحسابَ عنها فالربُّ حرٌّ يصنع ما يشاء. وليس نظرُنا هنا الى الممكنات ولكن الى الموجودات فلا نعتبر انساناً مجرَّداً وهميًّا لم يوجد قطّ وألَّم يستحل وجودهُ في حدّ ذاته وانما موقفنا بازاء الجنس البشريّ على ما هو فعلًا تتراوحُ درجاتِ قوى افراده العقليَّة والاختياريَّة الَّا انَّها لا تتجاوز الطورَ الذي يحدُّه لنا الاختبار وليست بمعزلٍ عن الحواجز التي على ما نتحشَّمهُ كلَّ ساعةٍ بامّ العين تمنع معظم بني جلدتنا عن التعمُّق في الدرس والتوغل في البحث

وقصارى القول عديدةٌ شديدة هي في حالة الانسان الحاضرة الصعوبات التي تعرقل سيرهُ في سبيل احراز الحقائق الدينيَّة حتى الطبيعيَّة كافيةً وافيةً . وتلك صعوباتٌ قلَّما ينتصر عليها البشر بما ذُرِّعوا من القوى الفطرية فلا يظفرون اجمعهم بالحقيقة سالمةً من آفة الريب والغرور ما لم يمنّ عليهم ربُّهم امَّا بتعليم من عندهِ واما بعونٍ آخر خارق العادة

تلك هي القضية التي نريد اثباتها هنا ولنا عليها برهانان احدُهما مبنيٌّ على الاختبار النفسيّ والآخر على التاريخ

البرهان الاوّل – عن الاختبار النفسيّ

هو البرهان الذي جاء القديس توما اللاهوتي في خلاصته ضدّ الامم (ك١ ف٢) وعنهُ ننقلهُ هنا لا نزيد عليه الَّا بعض ايضاحات. قال:

لو تُرك العقلُ البشريّ وشأنهُ يستقصي الحقائق الالهيَّة الطبيعيَّة لتحصَّل عن ذلك محذوراتٌ ثلاثة:

(اوَّلها) انَّ معرفة الله تكون (في الحالة الموصوفة) متعسرةً على نفر قليل لأنَّ ايجاد الحقيقة هو ثمرة البحث النيف وعن اجتناء هذه الثمرة يمانعُ الكثيرون لاسبابٍ ثلاثة: اما من الناس مَن يُعدَمون عن ذلك لخللٍ متوطنٍ بمزاجهم وعن هذا يتأتَّى كونُ كثيرين غيرَ اهلٍ للعلم خلقةً فما من جهدٍ يبلغ بهم ذروة المعرفة البشريَّة التي تقوم بمعرفة الله »

فلا يخفى على الخبير المتبصِّر ما للجسم وبنيته والاحوال التي تطرأ عليه من التأثير في قوى النفس. فمِنْ فتىً لبيبٍ ذكيٍّ متوقد الذهن سريع الخاطر راغب في العلوم لا ينال منها نهمتهُ لمرضٍ يكدّه فيُقعده عن الانصباب عليها او اذا صرف عنايته

اليها غير حافل بتوعك صحته وتحول جسمه فربما عاجله الموت فاوقف سيره وقطعه غصناً ربيعياً قبل ان ينضج ثمر عقله . ومن كهل قوي صلب البدن له بنية صخرية يحاكي بها اشد العرين لا طاقة له على التنقيب العلمي لان المادة فيه تغلبت على الروح وكادت تخنق الذهن . فلامثال هذا أن يُلقنوا بالتعليم مما لا ندحة لهم عن معرفته ولكن ليس لهم ان يحاقوا في ابراج الالهيات كيما يمشوا عليها بذاتهم

وما قولك في الموانع الناشئة عن السن والجنس . ذاك الولد ان اصطاد العالم بذاته قبل مقتبل العمر كان نادرة في زمانه ومع هذا فالولد بشر كالكهل له رب عليه ان يعرفه ويعبده . وتلك المرأة هي انسى عاطفة منها ادراكاً . لها رقة القلب والحنان كما للرجل بُعد البصيرة في التفكر وسمو الطالب في الفحص والتنقيب خصها الخالق ولا شك بنصيب وافر من الفهم الا ان الفهم ليس الابتكار فالرجل يبتكر الحقائق والمرأة تُهدى اليها . هذا فيما يغلب وما شذ عن الحكم العام يدعمه لا يدحضه . على ان النساء ايضاً هن عباد لا يستغنين عن معرفة المعبود وعابدهن واجباتهن

وهب القوى العقلية في كل الناس كاملة لا يؤثر فيها شيء من عاهات الجسد ولا من السن والجنس أفيقضى للجميع ان ينقطعوا الى التأمل في الالهيات كيما يقفوا على كنهها . أوليس الانسان روحاً وجسماً معاً . فاذا لو عدل الحباز عن فرنه والفلاح عن محراثه ومذراه والتاجر عن سلعته ورب العائلة عما يُقيت ذويه وكل عن اسباب معيشته وصرفوا همتهم الى التنقيب والتدقيق أفيتم اذ ذاك للبشر هناء أو عيش ؟ هذا هو السبب الثاني الذي ذكره القديس توما قال :

٢) ومنهم من تمنعهم (عن البحث الشخصي) الحاجة العائلية لانه ينبغي ان يكون بين الناس من يكبون على ادارة الزمنيات فلا يقدرون ان يصرفوا من الزمان قدراً يتوفقون به الى التوغل حتى الدرجة العليا من الاستقصاء البشري اعني معرفة الله

٣) ومنهم من يُقعدهم الكسل اذ ان معرفة ما العقل ان يتقصاه عن الله تقتضي الوقوف السابق على امور كثيرة فان النظر الفلسفي انما يكاد كلهُ يرمي الى معرفة الله ولذا فان علم ما وراء الطبيعة الذي مداره على الالهيات هو آخر ما يُتعلم من اجزاء الفلسفة

وعليه فلا يمكن البلوغ الى استقصاء الحقيقة المذكورة الا بالتعب الشديد وهذا التعب قلما يتحراه الناس حباً بالعلم رغماً عما غرس الله في العقول من الميل الفطري اليه

(المحذور الثاني) : ان اولائك الذين يتوصلون الى معرفة او ايجاد الحقيقة المذكورة

انما ينالونها بالكدّ بعد زمن طويل وذلك اما بسبب ما طرأت هذه الحقيقة من التواضع التي لا يتأهّل لها الادراك بطريق التعقّل الّا بعد التمرّن المديد. واما لما تقتضيه من سابق المعرفة لامور كثيرة على ما قدّمنا. واما لأنّ النفس في زمن الشباب تتنازعها الاهواء بحركاتها فليست قابلة لمعرفة حقيقة سامية وانما تصبر فطنة حكيمة بالتأني والراحة على ما قال (ارسطو) في كتاب الطبيعيات السابع. وعليه فلو كان العقل هو الطريق الوحيد الذي يؤدي الى معرفة الله لَلَبِث الجنس البشري متسكّعاً في دياجير الجهالة لأنّ معرفة الله التي بها للبشر غاية الكمال والصلاح لم تكن اذ ذاك حصلت الّا للقليلين ولم تكن حصلت لهم الّا بعد الزمن الطويل

« المحذور الثالث » هو توارث اعتراج الضلال والهتان بالمباحث البشريّة ذلك اضعف عقلا واختلاط الاوهام وعليه فيظلّ كثيرون متردّدين حتى في الامور الثابتة على البراهين الصحيحة الراهنة لانهم يرَون الذين يُدعَون حكماء متفرّقين كلٌّ يذهب مذهبهُ »

وهو بعض السبب في كون ما لايتمكن البشر من الالمام به بذاتهم لا يتوفقون اليه بتعليم ينجدهم به جهابذتهم على ما تبيّنهُ لك في البرهان الثاني

« هذا فضلا عمّا قد يشوب حقائق كثيرة من البطل الذي لا يُثبَت بدليل راهن بل نحتم به عن سبب أرجحيّ أو سفسطائي ربّما أُنزل منزلة البرهان الصحيح

ومن ثمّ فلا بدّ من الايمان سبيلاً للبشر كيما يبدو لهم التأكيد ثابتاً والحقيقة خالصةً فهي سلامتنا اذا توخّاها الله بلطفه اذ امرنا ان نؤمن حتى بما للعقل قدرة على استقصائه كيما يتيسّر للجميع ان يعرفوا الامور الالهيّة معرفةً سالمةً من الريب والضلال

ولهذا السبب قد قيل: « لا تحاكموا فيما بعد كما يسأل الامم ببطل بصائرهم الذين أظلم فهمهم وتغرّبوا عن حياة الله لاجل الجهل الذي فيهم وعمى قلوبهم (افس ٤ : ١٧ : ١٨)

*

البرهان الثاني – عن التاريخ

الى هذا البرهان اشار القديس توما في النص الكتابي الذي ختم به الفصل المورَد له انفاً. والحقّ يُقال انّ من تصفّح التواريخ القديمة وتتبّع بعين الروّية والانصاف اثار الامم التي انجبت عنها انوار الوحي الالهي يتحقق امرين: (اولهما) انّ تلك الامم تهوّرت في الاضاليل الدينية اقبحها واخبثها. (والثاني) انّ هذا الصدع لم يتمكّن من رأيه فلاسفتهم مهما علت حكمتهم واتسعت وعليه كان لا بدّ من الوحي الالهي لانتشال البشر من هاوية الغرور والغواية. واليك بعض التفصيل :

(اولًا : ذكر اضاليل الوثنيين) راجع الفصل الاوّل من رسالة القديس بولس الى اهل رومية فانك وان ضربتَ صفحاً عن كونها سفراً منزلًا واعتبرتها كشهادة تاريخية محضة ترى عجباً من البطل والقباحة في آراء الامم ومذاهبهم ومسالك سيرهم

وقد كان الرومان والاغريق من الذين نبغوا في العلوم والفنون ومع ذلك لم يسلموا هم ايضاً من التيه والجهل في الامور الدينية بل تمادوا في غيّهم وتعمّهوا في سكرتهم من ذلك:

١ انهم سخّروا حقيقة اللاهوت وقبّحوها ففي ذيّاك العالم المتمدّن نبت الاشراك وفيه عاث الزنادقة المتنوّرون الذين ذهبوا انّ للخلق مبدأين احدهما روحيّ صالح والآخر مادّيّ طالح وفي العالم نفسه انتشرت الوثنية واتسع نطاقها حتى كادت تشمل المسكونة قاطبةً حيث سجد الانسان الناطق العاقل للجمادات والبهائم وأله الكواكب والنجوم والنبات والشجر ونحتَ له معبوداتٍ من الخشب والحجر والفضة والذهب وسائر المعادن. قال الشاعر هوراس بلسان احد الاتصاب ممازحاً: « قد كنتُ فيما سلف جذلَ تينةٍ وساقَ خشبٍ لا يجدي نفعاً فاختارَ النجّات في امري ولم يدرِ أيجعلني دكّةً ام صنماً لبريابس (الاله Priapus) ثمّ تخيّرني الفاً فالهٌ اذًا انا » . (١ وليس بمنكر انّ من المشركين من اقرّوا بربوبية إلهٍ واحد فجعلوه فوق سائر الآلهة متساميًا عليهم غير انّهم اخضعوهُ للقدَر لا يستطيع ان يحيد منهُ بشيءٍ على ما يتضح لك من اقوال فلاسفتهم وشعرائهم منها قول سينيكا في الربّ الاعظم (٢ : « انهُ دائمًا ابدًا خاضعٌ. انما فاهَ بالاوامر مرّةً واحدة » وقد اشار بهذا انّ الله مقيّدٌ بالاقدار لا يمكنهُ ان يغيّر فيها شيئاً. تعالى ربُّنا عن ان يوضع حدٌّ لمشيئتهِ فهو القدير يقدر ما يشاء. كذلك زفس (Jupiter) في الالياذة يحكم باندحار الاغريق عن عمى ولمجردِ ما رجحت كفّة قسطاس الاقدار التي كان خصمها بهم . قال هوميروس يصف هذا القضاء (٣ :

وعند انتصاف الشمس في كبد السما ... لقسطاسه التجريّ قامَ محرّرا

وألقى بهِ قدحين للموت والشقا ... لكلٍّ منَ الفريقين سهماً محتّما
فسهمُ بني الاغريقِ مال الى الثرى ... وسهمُ بني الطرواد للجوّ حلّقا
فارعدَ من الطوادِ ايذا هديدُهُ ... وما بينَ ذرّاعِ الاغاريقِ ابرقا

---

١) اطلب ديوانهُ (Horacius, *L. I, Sat.* 8)
٢) راجع كتابهُ (De Provident. 5)
٣) الياذة هوميروس ترجمة س . البستاني ص ٥٢٠ و٥٢١

فهذَعُمُ من شدّةِ الهول رِعْدَةٌ واجدرُم بالبطشِ ولّى وأدبرا

وزدْ على ذلك ما كان يُنسب الى الآلهة من العيوب والرذائل كأنها لجأت الى ناديهم حصناً منيعاً ترتع فيهِ وتتنعّم ولا رادع ولا لائم بل كما أننا نحن المسيحيين اخترنا لنا من اولياء الله شفيعاً لكل فضيلةٍ نزيدُ احرازها كذلك المشركون اقاموا من الآلهة حامياً لكل رذيلةٍ ولم يخجلوا ان ينصبوا الهياكل لبعل السكر والاغتصاب والدعارة والمسافحة والقظاظة والظلم والاختلاس والكذب الخ. ولذلك كان الشاعر اوفيديوس يحذّر على العذارى دخول معابد زحل لئلا يؤول بهنّ مثلُ هذا الاله الى ما لا تُحمد فيهنّ معرفتهُ فضلاً عن فعلهِ ولا يسعنا هنا تعريب بيت الشاعر المذكور بحرفهِ (١ ولدى النابغتين عوميروس وهيزيود من امثال ما ذكرنا كثير لا يجمل بنا سَرْدُهُ هنا (٢

٢ قد طالما انقلبت العبادة لديهم قساوة قلبٍ وفساد اخلاقٍ فانهم كانوا بعض الاحيان يحاولون تسكين غضب آلهتهم بذبائح بشرية ولا حاجة الى وصف بعض اعيادهم التي كانوا يحتفلون بها اكراماً لمعبوديهم وبئس الاكرام وقوامهُ خلع العذار وهتك ستر الحياء. هذا في العبادة الخارجية امّا الباطنية فقلّما فطنوا لما تستوجبهُ من التديُّن الحقّ الذي لم يألفوهُ ولم يعهدوهُ فلا تعجبنّ من استفهام كوتّا (Cotta) الانكاري لدى شيشرون (٣ وقال ارسطو (٤ : « من الخلف ان يقول احدٌ انهُ يحبّ زحل »

٣ ولا بدع اذا كان الوثنيون بكذا اعتقادٍ ودين لا يقدّرون ذاتهم ولا بني جلدتهم بحقّ قدرهم. اجل قد كانوا يراعون بعض المراعاة حقوق القريب بينهم بيد انهم لم يحتسبوا قريباً لهم الّا من جمعتهُ واياهم صلاتُ الوطن الواحد امّا سائر

---

١) اطلب كتاب شيشرون في طبيعة الآلهة (٢ : ٢٤ وما يليهِ) والقديس اغوسطينوس في مدينة الله (٦ : ٦) وارنوبيوس (Arnobius) في مؤلفهِ ضدّ الامم (٤ : ١٨ وما بعده)

٢) اطلب المعجم الثاني في ذيل تعريب الالياذة ص ١١٦٥ — ١١٦٨

٣) De Natura Deorum, III, c. 36

٤) في الادبيّات الكبرى ٢ : ١١

البشر فلم يكن لهم حقوق في اعينهم وهم في حسابهم اعداء وعبيد يُتهنون ويقاسون عذاباً ويسامون خسفاً وذلاً. ومما يرفع قدر الانسان في اعتباره خلود نفسه الحيَّة على انَّ الاعتقاد بهذه الحقيقة بالرغم عمَّا في طبيعتنا من الميل الشديد اليه لم يكن لدى الفلاسفة الشركين ثابتاً متيناً سالماً من شائبة الريب. فقد خالج الشكُّ فيه جهابذة فلاسفتهم منهم شيشرون (١ وتشيتوس (Tacite) (٢ وافلاطون (٣ ومنهم من نفى خلود النفس بتاتاً كالطبيعي بلينيوس (Pline) الاصغر (٤

٤ واما ما بنوا على هذه المبادئ النظرية من النتائج العمليَّة الادبيَّة مما يحجهُ العقل السليم فحدِّث عنهُ ولا حرج. يقشعرّ البدن عند تلاوة ما اثبتهُ القديس بولس في رسالتهِ الى رومية من عوائد الامم (٥ على انَّ ما رواهُ الرسول المذكور حتى في اعتبار العقل المجرَّد لم يبالغ بهِ قطّ فتلك لعمرُك حقائق تاريخيَّة راهنة يدعمُها نفس المؤرخين الوثنيين بشهاداتهم ويؤيدها حكماء الامم بتعاليمهم. ذاك افلاطون جعلَ في مملكته كلَّ شيء حتى العرضَ مشاعاً بل بالغ بهِ الضلال الى حدّ أن اجاز عَرْض الاطفال الذين يولدون بعاهة وقد حرَّم السكرَ الَّا في اعياد ذيونيس (Bacchus) اله الخمرة (٦

*

(ثانياً) ولا مشاحَّة انَّ الحكماء مهما تبغروا غير قادرين على تجدة الشعب وانقاذه من غيّهِ. اجل قد كانت ولم تزل الشهرة الطائلة للفلاسفة الاقدمين عموماً واليونانيين منهم خصوصاً بل قد خلَّفوا من الآثار ما يُذكر حتى اليوم فيُشكر ومع هذا لم يُرشدوا الشعب الى الحقّ والعدل والصلاح فانهم لم يستطيعوا ذلك ولم يبتغوه.

(ب) اما كونهم عجزوا عن هذا المطلب فممَّا يدلُّ عليهِ انهم لو حاولوا تعليم الشعب الحقّ لوجدوا ان يُجيبهم بالمثل السائر: ايها الطبيب اشفِ نفسك. والحقّ يقال انَّهُ ليس من

١) في كتابهِ Tuscul., l. II, c. 11
٢) في تاريخهِ Agricolæ Vita, n. 46
٣) في دفاعهِ عن سقراط Apol. Socr. n. 32
٤) في تاريخهِ الطبيعي Nat. Hist. l. VIII c. 55
٥) رو ١: ٢٦ وما يليه
٦) اطلب شيشرون (De Natura Deorum, l. I, c 28) والمؤرخ اللاتيني سالوست (Bell. Catilin., c. 12 - 13)

حكيم نبغ فيهم الا وخلط الغث بالسمين واركن الى الآراء الفاسدة. فكلهم اعتقدوا ازلية المادة وما من واحد بينهم صرّح تصريحاً بحقيقة الخلق. وقد بسطنا فيما سبق مزاعمهم الباطلة في النظر والادب وزد على هذا ارتياحهم جميعاً في ماهية اللاهوت على ما اقرّ به احد المعجبين بهم شيشرون قال (١ : ٥ اغلب الحكماء قالوا بوجود الآلهة وقد شكّ فيه بروتاغوراس (Protagoras) ونفاه بتاتاً دياغوراس (Diagoras) وتاوذوروس. واما الذين حكموا بوجود الآلهة فقد بلغوا من الاختلاف والتنازع فيما بينهم ما يؤول به تعداد مذاهبهم الى الاسقام. فكيف يعلّم غيرهم اولئك الذين اما جهلوا الحقيقة واما ارتابوا بها واما لم يحرزوها خالصة من الغرور (٢

ثم من اين لاولئك الحكماء الكفاءة لاقناع الشعب بما يخالونه حقاً وأيّ سبيل لهم الى عقولهم ؟ أفيقصدونها عن طريق البرهان ؟ اعلم انك لطريق وعر السالك لا يؤدي بهم الى اقناع السذج وهؤلاء على ما تعلم هم اكثر انقياداً لما يُثير فيهم الاهواء منهم لما يُنير البصائر واكثرهم عاجزٌ عن ان يفقه الحجج قوةً او ان يتبع لها سياقاً. ثم يسطو الفلاسفة على الأمنيين بما ربنا الهم سامي علمهم من السلطة فحيث لا تنفذ قوة البرهان يأمرون بالايمان الاعمى ؟ وأنى لهم تلك السلطة وهم دائماً ابداً متشتتون شذر مذر لا يتفقون على رأي ينفي الواحدُ منهم ما جزم به الآخر ؟ والشعب وإلم يتوقف الى فهم براهينهم لا يصعب عليه الالمام بنازعاتهم فتأخذه الحيرة لا يدري الى ايّ من احزابهم ينتمي فيختار الحياد لا يعتنق مذهباً دون غيره. وهب الحكماء هؤلاء اجمعوا على تعليم واحد ولو في بعض الامور فلا يتسنّى لهم ارشاد الشعب الى سواء السبيل ذلك لانّ الاعمال خصوصاً في موضوع الادب والدين انطقُ من الاقوال فاذا كانت الاعمال تكذّب الاقوال اضحت هذه لا قوة لها ولا نفوذ. ومعلوم انّ سيرة الفلاسفة لم تكن طبق تعليمهم (٣

٢) ولم يكن الفلاسفة عاجزين فقط عن تعليم الشعب لكنّهم ايضاً لم يريدوه

---

١) De Natura Deorum, l. I, c. 1

٢) اطلب القديس اغوسطينوس في كتابه مدينة الله (١٨ : ٤١)

٣) اطلب شيشرون: Tuscul., l. II, c. 4

ولم يتوخوهُ قطُّ غايةً وقد شهد بهذا احدهم شيشرون اذ قال (١ : « تكتفي الفلسفة بما قلَّ من المرتبتين فهي تهربُ من الجمهور عمداً والجمهور يتريَّب منها ويبغضها ». ولذلك كان ارباب يقنعون بعددٍ زهيدٍ من الاتباع والتلاميذ ويجاهرون على رؤوس الملإ بوجوب جهل الشعب لامور كثيرة واما العقائد الدينية فلا يجوز في رأيهم ان يلحقها ادنى تغيير مهما كانت باطلة كاذبة ومن تعرَّض لابدالها او لاصلاح خللها تظهر في اعينهم جاهل احمق

ومن اجل هذا لم يُقدموا على رذل خرافات الشعب علناً وان هزأوا بها باطناً بل غالباً ما تظاهروا باعتقادها فتقدَّموا الذبائح للآلهة الكذبة وتعبدوا لهم بما سجَّنهُ حكمتهم ولم يسلم الذين برَّزوا فيهم من جناتهم هذه . ترى منهم سقراط اذ قربت ساعة موته يسأل اصدقاءهُ ان يذبحوا عنهُ لاسكولاب . وافلاطون يبتّ بوجوب الاحتفاظ بدين الوطن وان باطلاً (٢ وشيشرون على الرأي ذاته (٣

وليس الذين اعتزلوا الوحي من فلاسفة عصرنا اوفى حظاً من سلفائهم الوثنيين ولا اقدر منهم على انارة الشعب وارشاده وقد هبطوا مثلهم في اقبح الاضاليل على ما لخصناه سابقاً (٤

والحاصل انَّ الجنس البشري قاصرٌ عن ان يحرز ذاته بذاته الحقائق الدينيَّة والادبيَّة التي لا بدَّ لهُ من معرفتها كيما يمجِّد خالقه ويسير بما يليق به ويعدل عمَّا يحطّ من شأنه ولذلك فقد ضلَّ المتعاقلون اذ زعموا أنَّ الوحي لا فائدة منهُ وقد بانت لك ضرورتهُ فضلاً عن منفعته

ومما يؤيِّد نتيجتنا هذه شهادة الديانات المختلفة المنتشرة في العالم فانَّ اغلبها ان لم نقل كلها تستند الى الوحي الصحيح او الفاسد . وان كانت البوذيَّة في اصلها وعلى ما انشئها الاول لا تنتمي الى الله واحياً فلا شكَّ انَّ اتباع بوذا اقروه واحتسبوهُ وسيطاً بين الربِّ الاعظم والبشر

---

١) Tuscul., I II, c. 1

٢) في محكمته (ك ٤)

٣) De Divin., l. II, c. 24

٤) ص ٢٦٢ — ٢٦٦

فهو الضلال اذن يضيف صوتهُ الى صوتِ الحقّ وينادي بضرورة الوحي وكأنّي بالانسانيّة جمعاء شاخصة الى السماء رافعة اكفّها الى الله تسألهُ الوحي او تحمده عليهِ فالذين لم تُشرق عليهم شمسهُ يصرخون بلسان ضلالهم وفسادِ عيشهم : « أقطري ايتها السماوات من فوق ولتُسطر الغيوم الصدّيق (١ » ليُضيءَ الجالسين في الظلمة وظلال الموت ويُرشد اقدامنا الى سبيل السلامة (٢ » واما الذين افاض الله عليهم انوار كلمتهِ المتجسّد فنشيدُهم نشيدُ الشكر والثناء عليهِ تعالى وعلى ابنه الوحيد الذي ارسله اليهم مرشداً هادياً بذكرهِ ينشدون هاتفين: « هو شمنا لابن داود مباركٌ الآتي باسم الربّ (٣ » وعنهُ حديث الآباء منهم للبنين اذ يقولون لهم: « اما النعمة والحقّ فبيسوع المسيح حصلا. الله لم يرهُ احدٌ قطّ . الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو أخبر (٤ »

النصرانية وآدابها
بين
عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل الخامس

في الامثال العربيّة المنقولة عن الاسفار المقدسة (تتمة)

٣ وبين امثال العرب في الجاهليّة واوّل الاسلام ما هو منقول بحرفهِ او بمعناه من الكتب المقدسة . فدونك ما اخذوهُ عن اسفار العهد القديم

بين الامثال التي رواها الميداني في مجموعهِ (طبعة بولاق ٢ : ٢٢٩) قولهم : « المرأة من المرء وكلّ ادماء من آدم ». واردف : « ويقال انّ هذا اوّل مثل جرى

---

١) اش ٤٥ : ٨ ٢) لو ١ : ٧٩

٣) مت ١١ : ٩ ٤) يو ١ : ١٧ — ١٨